قصة مثل

— ٥ —

غراب بن غراب

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ١١ شارع جواد حسني

ص . ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح غ ر غراب بن غراب / بقلم محمد ماهر قابيل.- القاهرة : دار الفكر العربى ؛ إيداع ١٩٩١.
١٦ ص : مص ؛ ٢٤ سم .- ([سلسلة] قصة مثل ؛ ٥)
تدمك : ٣ - ٧ - ٠٥٠٧ - ١٠ - ٩٧٧.
١- الأمثال العامية العربية. أ- العنــوان. ب - السلسلة.

تملك الأسى من الغراب، واسودت الدنيا فى عينيه كاسوداد ريشه أو أشد.

كان الغراب عقيما. وقد أهمه ذلك هما كبيرا. فكان يقضى نهاره يحلق كالتائه، ويهبط كالساقط. ثم يعود إلى عشه حزينا منكسرا، فتستقبله أنثاه يائسة خجلى.

وذات ليلة، جعلا ينعيان حظهما العاثر. فقال الغراب فى حسرة:

– كم تمنيت أن يكون لنا ابن يخلفنا، ويرث من بعدنا عشنا هذا.

قالت زوجه تشاركه مشاعره:

– لقد تعبنا فى بنائه تعبا بالغا.

أضاف الغراب:

– وأثثناه بالقش والريش الناعم.

استكملت زوجه قائلة:

– واغتربنا من أجل ذلك فى بلاد بعيدة.

ثم استطردت مسترجعة:

– قاسينا وشقينا.

قال الغراب ساخرا:

– وكنت أواسيك بأن كله لأولادنا.

قالت الزوج فى لوم:

– قلت لى نؤجل الإنجاب حتى تقف على رجليك. وها قد وقفت. وانتظرنا الفرج فلم يأت.

قال الغراب متشبثا بالأمل:

– يجب ألا نيأس على كل حال.


زفرت زوجه قائلة:



– لم يعد فى العمر بقية.

مد الغراب جناحيه قليلا وقال:

– لم يفت الأوان بعد.

استكانت زوجه قائلة:

– ذهبت عنى عافية الشباب.

قال الغراب مترفقا:

– تقصدين التربية والرعاية؟

أجابت آسفة:

– أصبحت فى حاجة إلى من يرعانى.

تدفق حنانه على رفيقة عمره، فقال:

– لا تقولى ذلك. أنا ياسيدتى خادمك.

انتشت بهذا الحب قائلة:

– بل أنا رهن إشارتك فى كل وقت. لكن الصحة لم تعد تساعدنى أيها العزيز.

قال الغراب فى مروءة:

– إن شئت طرت إلى أقصى الأرض، وجئتك بالأعشاب الشافية، ولو كانت وراء المحيط، واستغرقت رحلتى عاما كاملا.

قالت زوجه شاكرة متوددة:

– وهل أقدر على فراقك يوما حتى تغيب عنى عاما؟ إنك صاحبى وأنيسى وسلواى. ولو كان لنا ولد لما تعزيت به عن بعدك.

تحركت أشجان الغراب لذكر الولد، فغمغم بصوت محتبس مرددا:

– لو كان لنا ولد.. لو كان لنا ولد.. وددت لو بعت ما بقى من عمرى بولد أراه لحظة ثم أموت.

قالت زوجه مسرعة:

– بعد الشر عنك. أنا فداك. ليتنى أستطيع أن أحقق لك حلمك، وأن أجعلك ملك الطيور كلها، ثم يكون منى ولى عهدك.

ناجاها زوجها قائلا:

– يامليكة روحى وفؤادى. ياسوسنة قلبى وعقلى. ياريحانة وجودى وحياتى. هاتف خفى يحدثنى حديث الرجاء. وصوتك العذب يحدثنى حديث الوفاء. وإننى بك لملك غير متوج.

قالت على استحياء:

– لكن بغير ولى عهد.

* * *

وذات يوم، التقى الغراب بصديق قديم، فرحب به هذا الصديق قائلا:

– أهلا بمن ينسى أصدقاءه.

قال الغراب فى حفاوة:

– كيف أنساك؟ أنت دائما فى الذاكرة.

ثم أردف مطرقا:

– ولكنها الدنيا.

قال الصديق فى مرح:

– ماذا فعلت بك الدنيا؟ ألم تتزوج؟

قال الغراب وهو ينظر نظرة تائهة:

– بلى، تزوجت.

قال صديقه مغتبطا:

– لابد أنك قد وفقت إلى عش مناسب.

قال الغراب:

– ولكن النعمة لا تتم.

قال صديقه وقد فارقه مرحه:

– ما الذى ينقصك؟

أجاب وهو يهز رأسه كبندول الساعة يمينا ويسارا فى بطء:

– ينقصنى البنون يا أخى. هدفى من حياتى. لمن أطير وأعمل وأجمع؟ لمن صنعت العش؟ لمن اغتربت وضحيت؟

قال الصديق مهونا:

– أهذه هى مشكلتك؟

أجاب الغراب:

– وأية مشكلة. إنها مشكلة مستعصية.

قال صديقه مبشرا:

– ولكن لها حل.

قال الغراب فى هوج:

– حل.. عجّل.. قل .. ما هو الحل؟

قال الصديق معاكسا:

– ليس قبل أن تدفع ثمنه.. أجل.. الدفع أولا.

قال الغراب وقد خرج عن طوره:

– أرجوك.. لا أحتمل مزاحا فى ذلك.

قال الصديق فى رفق:

– نبات نادر يداوى العقم.

قال الغراب وهو يوشك أن يطير فرحا:

– وأين أجده؟

أجاب صديقه:

– إنه ينبت عند منبع النهر.

وطار الغراب فرحا، فعاد إلى زوجه يخبرها بالخبر المبهج. ثم ودعها مضطربا، وطار إلى منبع النهر فى سبعة أيام. فأكل من ذلك النبات فى شغف ونهم. ثم شرب من ماء النهر. ثم عاد إلى الأكل من النبات النادر. ثم إلى الشرب. ثم إلى الأكل حتى أوشكت معدته أن تنفجر.

ولبث على هذا الحال ستة أيام ازداد فيها وزنه، وتدفق الدم فى عروقه. ثم طار سعيدا إلى عشه فبلغه بعد سبعة أيام. لكنه وجد أنثاه قد ماتت، وصدم لذلك صدمة كبرى، فحملها إلى حيث واراها التراب. ثم تقبل فيها عزاء أقاربه وأصدقائه. وبعد انقضاء أيام الحداد جاءه صديقه الذى دله على دواء العقم قائلا:

– هذا حال الدنيا.

قال الغراب:

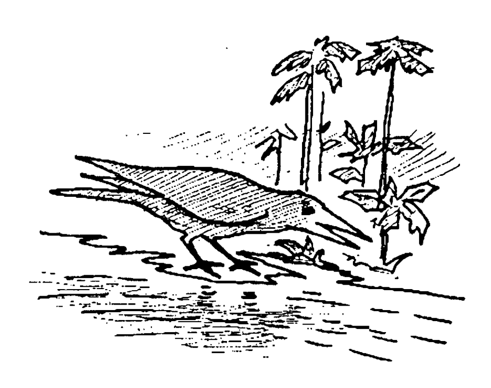
– ما كادت تقبل حتى أدبرت.

قال صديقه معزيا:

– حكمة القدر.

قال الغراب مستغربا:

– ليتنى أستطيع أن أفهمها.



قال الصديق متأهبا للطيران:

– هيا.. حلق معى.. تأمل هذه الحقول الخضراء الشاسعة. انظر إلى السماء الزرقاء البديعة. تطلع إلى الأشجار العالية، والسحب الراكضة، والمياه المتدفقة. ليس من الضرورى أن نفهم حكمة القدر. هيا.. استنشق هذا النسيم العليل.. دعنا ننعم بهذه النعم الجليلة، ولا نفكر إلا فى حدود الممكن.

شاركه الغراب نزهة جوية قصيرة رائعة. ليست للبحث عن الطعام. فقط للترويح والتريض. ثم عادا إلى الأرض، فسأل الغراب صديقه:

– بماذا تنصحنى؟

قال الصديق مترددا:

– لست من هواة النصح والإرشاد، وادعاء البصيرة النافذة.

ولكننى لو كنت مكانك...

توقف برهة. فسأله الغراب:

– لو كنت مكانى. ماذا كنت ستفعل؟

أجاب الصديق بلهجة حاسمة:

– لو كنت مكانك لما ترددت فى الزواج ثانية.

قال الغراب مستنكرا:

– أتزوج مرة أخرى، مستحيل.

قال الصديق:

– ما هو وجه الاستحالة؟

قال الغراب مستدركا:

– أقصد أنه أمر صعب.

عاد الصديق يسأل:

- ما هو وجه الصعوبة؟

قال الغراب، وهو يخطو مقتربا من صديقه:

- من العسير أن أجد العروس الملائمة فى مثل سنى.

قال صديقه:

- هذا غير صحيح. يمكنك أن تجدها إذا أردت.

قال الغراب:

- هل تبحث لى عنها؟

قال الصديق فى شهامة:

- إننى لا أرد لك طلبا. ولكننى أفضل أن تبحث بذاتك. ففى مثل هذه المهام لا يكون الاعتماد على الغير من المفضل.

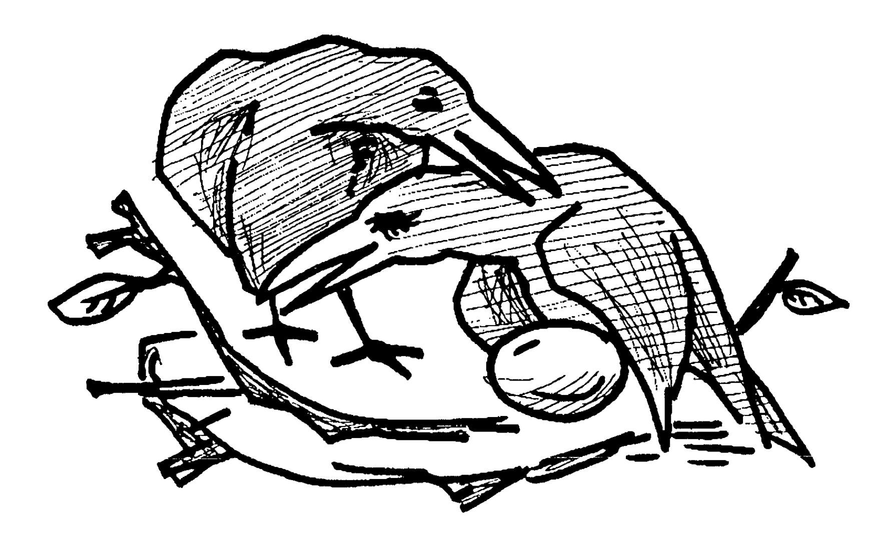
ثم استطرد مداعبا:

- أرنا همتك ياعريس. نريد أن نفرح بك، ونرى ولدك.

وخفق قلب الغراب بعنف لذكر الولد. وعقد العزم على أن يجد فى البحث عن عروس.

* * *

وسرعان ما وجد الغراب عروسا . فطار بها إلى عشه، واحتفل معها بعرسه، وتقبل تهنئة أقاربه وأصدقائه، وأحاط عروسه بعناية خاصة، وتلقى بالفرح بيضتها الأولى.



ومضت الأيام مشحونة بالانتظار والترقب. وكلما أوشك حلم الغراب أن يتحقق ازدادت لهفته، وتعاظم حرصه على أنثاه وبيضته. حتى أصبح حديث رفاقه، فى حدبه وولعه وإغداقه. فلما جاء اليوم الموعود، وعاد الغراب إلى عشه ليجد ابنه الحبيب خارجا لتوه من البيضة، أوشك الأب أن يطير من الفرح. بل إنه طار فعلا.

* * *

وبفضل الرعاية الفائقة، والغذاء الوفير، كبر الابن بسرعة. وبدأ أبوه يعلمه الطيران. فأظهر الابن مهارة مبكرة. ثم حدثه أبوه عن البشر قائلا:

– نحن يابنى نعيش فى عالم يسوده البشر.

قال الابن الذكى:

– تلك الكائنات الكبيرة. التى تمشى على قدمين، ولا تستطيع التحليق بجناحين مثلنا.

قال الأب مسرورا بنبوغ خلفه:

– ولكنهم يمتازون علينا بالعقل.

استاء الابن، وقال:

– ظننتهم يسخرون الأرض لهم بقوة أجسادهم.

قال الأب بصبر المعلم:

– كلا يابنى. إن الثور أقوى من الإنسان. والأسد يستطيع أن يفترسه، وبوسع النمر أو الببر أو الفهد أو الذئب أن يمزقه إربا، كما أن الفيل أضخم منه حجما، والحوت أضخم من الفيل ذاته. وعضة واحدة من ثعبان سام تكفى لقتل الإنسان، ولدغة عقرب كفيلة بإزهاق روحه.

ثم أردف قائلا:

– لكن الإنسان يسمو على كل هذه المخلوقات بقدرات عقله. فيسيطر عليها جميعا.

قال الابن فى إكبار:

– ياله من جبار.

استرسل الأب قائلا:

– وعلى الطبيعة ذاتها .. على البحار والأنهار والسهول والجبال.

قال الابن، وهو يقفز قفزة صغيرة:

– وعلى ذلك فلا شأن لنا إلى جانب هذا الكائن العجيب.

قال الأب:

– إننا يابنى أمم أمثالهم. لا يلغى تفوقهم علينا وجودنا.

تساءل الابن:

– وهل يحبوننا ياأبى؟

أجاب الأب فى كدر:

– لا أدرى يابنى. إنهم يتشاءمون بنا.

سأل الابن بدهشة:

– لماذا يا أبى؟

رد الأب فى بطء، وهو يرنو إلى ابنه شاردا:

– إن عقولهم لا تمنع إيمان الكثيرين منهم بالتطير. وكل منا يابنى طائر.

ثم ضحك ساخرا، وشاركه ابنه الضحك قبل أن يسأله باستخفاف:

– ولماذا يخصوننا دون غيرنا من الطيور بتطيرهم؟

أجاب الأب:

– لا أستطيع أن أرجع ذلك إلى لوننا الأسود. فهو لباس الحداد عند بعضهم. لكن بعضهم كان يرتدى البياض حزنا على موتاه. إنهم ينفرون منا على أى حال. وذلك لا يخلو من خير.. بل إنه الخير بعينه.

قال الابن بأدب تلميذ مجتهد:

– أيكون النفور خيرا؟ أتكون الكراهية محبذة ولو لم نعرف لها سببا مقبولا؟

أجاب الأب فى روية:

– لا يخلو شئ فى الوجود يابنى من خير. أمعن النظر فيما ترى وإن بدا فى ظاهره شرا محضا، وسوف ترى وجها من وجوه الخير مستترا خلفه.

حتى الحية الرقطاء: يمكن أن يكون فيها خير إذا قضت على شرير مؤذ.

سأل الابن مستزيدا:

– وكيف تنطوى كراهية البشر لنا على الخير يأبتاه؟

رد الأب ضاحكا:

– وهل فى كراهية البشر إلا الخير؟ أرأيت الحمام؟ إنهم يحبونه ويربونه ويطعمونه ويسكنونه ويتخذونه رمزا لسلامهم. فإلى أي مصير ينتهى كل ذلك الحب؟ إلى ذبحه وشيه والتهامه.

قال الابن فزعا:

– ياله من حب قاتل. من حسن الحظ أنهم ينفرون منا.

استرسل الأب قائلا:

– وينعتوننا بقبح الهيئة. فهل ترى فى ذلك خيرا؟

قال الابن:

– لا ذنب لى فيه على كل حال.

قال الأب، وهو يلتقط دودة من الأرض:

– إن قبحنا فى عيونهم خير لنا أى خير. فهم إن استملحوا طائرا مثل العصفور الملون أو الببغاء عمد وا إلى أسره وحبسه للاستمتاع بمشاهدته أو محادثته. غير مبالين فى سبيل هذا الترف بحرمانه من حريته.. من الطيران الذى هو أميز ما يميز الطائر.. الطيران الطليق الذى لا يحده قفص ولو كانت أسلاكه من ذهب.

قال الابن مسرورا:

– لنا أن نغتبط بأشكالنا التى لا تروقهم.

قال الأب مستطردا فى غم:

– لا يشط بك الخيال فتتوهم أنهم يعافون لحمنا، ويستقبحون سمتنا، ويتركوننا وشأننا.

قال الابن فى قلق:

– كيف يا أبى؟

أجاب الأب مفصلا:

– إنهم يرموننا بما لا حيلة لنا فيه، فيربطون بيننا وبين البين.

سأل الابن:

– وما البين؟

قال الأب مستكملا تفصيله:

– البين هو الفراق. فيقولون لصياحنا: نعب الغراب. ويزعمون أن ذلك نذير البين. وربما كان ذلك من أقاويل العرب دون غيرهم.

استفهم الابن قائلا:

– ومن هم العرب يا أبى؟

أجاب الأب:

– بعض من البشر يا ولدى، ولكن.. دعك من ذلك. فالمهم أن أبناء آدم يؤذوننا كثيرا. فسهامهم الفاتكة، ونبالهم المؤلمة، وسمومهم المميتة، وفخاخهم الخادعة طالما نالت منافأودت بحياة الكثيرين. حتى اختفينا تماما فى كثير من الأماكن. فهم يتسلون بصيدنا لا لشئ إلا لمجرد التسلية. وهم يستخدمون السموم التى قد لا يقصدوننا بها، ولكنها تكون سببا رئيسيا فى فنائنا وانقراضنا. مع أننا أساتذتهم وأصحاب فضل عليهم.

أنصت الابن فى شغف، فتابع الأب:

– أى بنى. نحن علمنا البشر. فقد كان لأبيهم آدم ابنان. أعمت الغيرة أحدهما فقتل أخاه، ولم يدفنه. حتى رأى غرابا يوارى سوأة أخيه، فأخذ عنه، وحذا حذوه.

قال الابن باعتداد:

– فلماذا قلت لى إنهم اختصوا دوننا بالعقل؟ هذه الحكاية تنبئ أننا أعقل منهم وأحكم.

قال الأب:

– على رسلك يابنى. هم يحركهم العقل، ونحن تحركنا الغريزة. والعقل قد يضل أو يعطب. أما الغريزة فلها ناموس ثابت.

قال الابن، ولم يفارقه اعتداده:

– ومع ذلك لا يتورعون عن إيذائنا.. طالما خلصناهم من آفات التهمناها. لكن عقلهم يدفعهم فى بعض الأحيان إلى ما يضرهم. ولكننى أتوق إلى معرفة السبب الذى انحدر بهذا الأخ إلى هوة قتل أخيه.

رد الأب قائلا:

- قرب الأخوان قربانا .. فتقبل الله من أحدهما، فقتله الآخر الذى لم يتقبل منه.

قال الابن بصوت منخفض كالمتأمل:

- لم يسلبه أخوه شيئا .. لم يتآمر عليه، ولم يضمر له شرا.

عقب الأب قائلا:

- بل قال له: لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك.

إنى أخاف الله رب العالمين.

قال الابن فى تأثر:

- سبحان الله. يالها من عبارة نبيلة، تؤثر ولو قيلت لحجر.

قال الأب مؤمنًا:

- بكل تأكيد . بل إن القتيل قال للقاتل إنما يتقبل الله من المتقين. أى الذين يخشون ربهم، ويسلكون مسلكا يرضيه. أما كان أولى بهذا الأخ أن يتأسى بأخيه، فيصبح مثله، بدلا من أن يحقد عليه، ويسفك دمه؟

أجاب الابن:

- بلى يا أبى. ولكنه ارتكب جريمته. فماذا كان بعدها؟

قال الأب:

- ندم على ما اقترف. وظلت جثة أخيه ملقاة حتى رأى غرابين يقتتلان.

تساءل الابن مستغربا:

- أنحن أيضا نقتتل يا أبى؟

أجاب الأب:

- ولم لا؟ لكن غريزتنا عرفت للمعركة آدابها

قال الابن فى زهو:

- كيف يا أبى؟

أجاب الأب، وهو يحسو قطرات من الماء:

– قتل أحد الغرابين غريمه، فدفنه على الفور. فشعر ابن آدم القاتل بمدى ضآلته إذ عجز أن يكون مثل ذلك الغراب، فيكرم جثة أخيه بمواراتها.

ففعل.

ثم أراد الأب أن يختبر فطنة ابنه فسأله:

– ولكن.. ماذا تفعل إذا رأيت ابن آدم يصوب إليك شيئا؟

أجاب الابن:

– أطير هاربا.

سر الأب بحذر ابنه، فقال:

– وإذا رأيت ابن آدم ينحنى على الأرض فيجب أن تهرب أيضا.

تساءل الابن:

– لماذا يا أبى؟

أجاب الأب:

– لأنه قد يلتقط حجرا يقذفك به.

قال الابن بعينين براقتين:

– وإذا لم ينحن فسأهرب أيضا.

أظهر الأب الدهشة، وحدق فى ابنه لحظة، ثم سأله:

– لماذا يا بنى؟

أجاب الابن، وهو يستعد للطيران:

– لأن الحجر قد يكون فى جيبه.

قال الأب فى نشوة، وهو يطير مع ابنه:

– غراب ابن غراب.

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٧٨٢١
الترقيم الدولى	٩٧٧ – ١٠ – ٠٥٠٧ –٣